الشخصية .. كي تكتمل

« ان كل شيء معد ..
« اذا كانت شخصيتنا كذلك »
شكسبير

obeikandl.com

هل ذهبت يوما لعيادة صديق لك فى مصحة الامراض العقلية ؟

أم ان اصدقاءك جميعهم من العقلاء ..؟

لقد زرتها يوما لزيارة صديق .. واذ كنت سائرا فى رصيف المستشفى ، سمعت صيحة صاخبة تتعقبنى من وراء قائلة :

ـ هو .. خلفا دور ..!

فلما التفت وجدت هملاقا ضخما طوله شبر .. وعرضه شبر . فسألنى :

ـ هل تعرفنى ؟

فاجبته : معذرة ، فانى لم اشرف بمعرفتك من قبل

قال : أنا القيصر الاخشيدى !

ـ مرحبا . سيدى القيصر .

ثم سألنى : هل تحب أن أوليك امارة ..؟

قلت : هذا شرف عظيم ياسيدى القيصر .

فضحك .. وقال : (خلاص) سأعزل أحد ولاتى ، وأضعك مكانه ـ ثم مد الى ذراعين مجدولتين ..

وقال : تعال ـ تقدم ..!

قلت : الى اين ؟

قال : الى هناك ـ الى الولاية انها فى المريخ وساحملك بين يدى وتغمض عينيك ، واقذفك فى الهواء ، فيحملك اليها ..!

قلت له : اذن ، فاعطنى فرصة التفكير ..!

وطفق يحرك سبابته فى الفراغ ـ كأنه يدير قرص « تليفون » ـ ثم وضع قبضته على أذنه ، وفمه .. وشرع

يحكم ، ويحسسه تحليمساته بالاستكبار ، الى الربح .. تاليا موسوم الذل ، وموسوم التعيين ..!

ما أسعد هذا القيصر الخشبي استراح مما يعذب العقلاء ..!

وما أشبه البشاشير به حين تركب فيح الفضيلة والغرور والانخداع : فتخال نفسها كهذا القيصر الاخشيدي . تسرق وتنزل ، وتضع وترفع ، وتحزم من تشاء وتذل من تشاء ..!

وما اظن المستعمرين ، والمستبدين يفرحون بشيء فرحهم الشعوب حين تصاب بهذه الآفة المسكنة ، والاخشيدية الوائمة ..

وثم حين يحسنون بوائر عافى شعب ـ يعملون دائبين على شيوعها وانمائها ـ لانها تشفي قلوب الجماهير مما تجد ... وتسرب غيظها في مسارب الاحلام .. وتحول طاقتها الهادفة الى ضجة فارغة . وتحتبس طموحها المتسلق الوثاب في قمقم هذه الاخشيدية السعيدة بجنونها ، وغرورها ..

***

الا ان شعبنا الضرير يعيش في الوهم .. ويقيم داخل اهابه ـ قيصر اخشيدي ـ من طراز قيصر المستشفى ..

ذلك الذي لم يعلم انه قيصر زائف حتى أشرت الى السلاسل التي يجرها في قدميه ، والتي صفدوه بها لتثبطه عن الهرب ، وتصده عن الافتراس .. وقلت له : ـ لو كنت قيصرا حقا ، ما سلكوك في هذه الاصفاد ..! وألقى على اصفاده نظرة واجمة عميقة . ثم ضرب صدره بيده وقال : ـ

ـ آه .. لابد انهم عزلوني .. انا اذن قيصر مخلوع ..!

قلت له ، وانا اودعه : ـ نعم .. انت قيصر مخلوع .

***

هنا مشابه كثيرة بين قيصرناهذا ، وبين الجماهير .. ولكن الشبه الوحيدالذى يهمناوجوده ـ هو ذلك الوعى الذى يرفع عن أبصارنا الغشاوة ، لنعلم أننـاشعب مخلوع ومعزول ـ

والآن .. فلنحرك أقدامنا ، فان أحسسنا بها ثقلا ، وسمعنا قعقعة الحديد .. وقهقهةالقيود .. فلنعلم انها الاغلال .

ان بداية البدايات فى نهضـةالامة أن تعرف نفسها ، وتتبين فى دقة وضعها ومكانها .. ولن تستطيع حتى تتخلى عن أوهامها وتواجه حقيقتها فى مرآة مجلوةلا تخفى من ملامحها شيئا ..

ثم تبدأ من جديد فى تـكوين شخصية لها ، عاقـلة ، عاملة نامية . وتبعة ذلك كله علينـاوحدنا .. لن يصنعنا أحـد سوانا ، فلنصنع لأنفسنا ـ نحن الشعب ـ شخصيةقوامها القوى الاجتماعية بعد تصـحيحهاوتنقيتها .

هذا هو الطريق .

وهناك حقيقة جديرة بالتذكروهى أن الطريق الوحيـد لأن ننهض .. هو أن نوجد ..

ووجود الشعب ـ معنـاهوجود قواه ، أو بتعبير آخر ـ وجود قواته الاجتماعية على حال تمكنها من امداده بالطاقةوالحياة

لقد تحدثنا عن الحرية . ولماكانت الحرية تضن بنفسها على الذين لا يستحقونها ، فقد صار لزاما علينا أن نبحث عن المقومات التى تجعلنا لها أهلا .. والتى تجعل لناقبل ذلك شخصيةسوية ناضجة تقاوم المطامع ، وتملأ فراغها فى الحياة ـ وهذه المقومات والعناصر هى ـ القوى الاجتماعيةالتى لهـا من الحتمية والفـائدة مايجعلها جديرة بالعناية والعمل من أجل حيازتها .

ينقل الاستاذ العقاد فى كتابه « فلاسفة الحكم » عن الفيلسوف

« جايتا تومسكا » هذه العبارة الجليلة . .

« ان الخير لا يتحقق فى الطبقة الحاكمة الا بفضل القوى الاجتماعية ، والحصانة الشرعية

« والحصانة الشرعية هى الوازع المستمد من قدرة القوى الاجتماعية على مقاومة مطامع الحاكم الشخصية . . »

***

اذن فالقوات الاجتماعية هى السيف المعنوى الذى يلاقى الفساد ويتحداه . .

واذا كانت قوانا هذه التى سنتحدث عنها ـ تبدو اليوم سيفا متقاصرا ، فلنعمل بوصية الاسبرطى الذى قلد ابنه سيفا ، فهزه الغلام فى قبضته ، وقال :

ـ يا أبت . هذا السيف قصير

فأجابه أبوه : تقدم به خطوة واحدة فسيصير طويلا . . ! فلنتقدم بقوانا خطوة ، مؤمنين بأن الظروف كائنة ما كانت لا تستطيع أن تعمل ضدنا على صورة شاملة ، ودائمة ـ الا اذا اردنا نحن ذلك . . وأن ما بنا من ضعف ليس علاجه مضاعفة أسبابه ، وارباء مقوماته . . والضمور الماثل فى قواتنا الاجتماعية يتطلب منا أن ننقل إليها من دمائنا لتنتعش . . لا أن نمتص ما بقى فيها من دماء .

لقد سئل رسام شهير : كيف تخرج الوان لوحاتك زاهية الى هذا الحد . . ؟

فأجاب : انى أخلطها بدمى . !

فلنخلط قوانا بدمائنا ـ أى لنؤازرها بكل ما نستطيعه من اخلاص وانصاف وانماء . ولنذكر مرة أخرى ـ ان حقوقنا ، كشعب ـ وأن الامم فى نضالها الموصول ، ومسراها الكادح نحو الحرية تكتسب بالخبرة والتجربة مزية الاقتناع بنفسها ، واحترام

العناصر المكونة لشخصيتها .. فاذا فقدنا هذه المزية اليوم ، وسخرنا قوانا الاجتماعية لغير صالحنا ، فقد تزع منا .. ولير حمنا الله ..!

والقوى الاجتماعية كثيرة ، ولكننا نركز الحديث عن أهمها ، وأكثرها اتصالا بقضيتنا ، وفاعلية في حاضرنا ومستقبلنا وهي :

أ ـ القانون ..

ب ـ الصحافة ..

ج ـ الأحزاب ..

د ـ القيم والمعايير

ولنتحدث عنها واحدة واحدة

أ ـ القانون ..

القصد .. والشمول

أول القوى الاجتماعية التي تتكون منها شخصية الشعب قانونه .

والقانون حين تكون النزاهة والقصد لحمته وسداه ـ فانه يصير مثابة الامة وأمنها ، وحامل رقي وتقدم فيها. أما اذا تجانف لهوى وعدوان ، فانه يكون آفة الامة وكارثتها الماحقة ، ويحق عليه ذلك المثل الاسباني الطريف

ـ اذاهب أنت الى القانون لتشكو اليه سرقة شاتك ..؟

ـ حسن .. ستعود ، وقد سرقت بقرتك ايضا ..!

والقانون لكي تتم نعمته على الناس يجب ـ في نظرنا ـ أن يلتزم أمرين ـ القصد ، والشمول

أما القصد ـ فيقتضينا الانسراف في وضع القوانين ، لأنها

غالبا ما تكون على حساب الحريةقبل وعلى حساب النظام السلمى توضع لحمايته .

وانا لنرجو أن يجد حكامنا جميعا ـ الشجاعة التى تحفزهم الى الاعتراف بأنهم اسرفوا على انفسهم ، وعلينا فى اصدار القوانين ، ولعلهم قد فاتهم ان قابلا من القوانين نطيقه ـ خير من كثير نتبرم به ، ونحتشد عليه .. وفاتهم ايضا أن القانون ليس الوسيلة الوحيدة لتربيةالشعوب ـ بل لعله آخر الوسائل جميعا .

ولنضرب لذلك مثلا :

منذ شهرين تقريبا قامت بمصر حركة اضرابات واسعة . حتى لقد اضرب الازهر اضرابا اجماعيا اشترك فيه شيخ الازهر وجماعة كبار العلماء .. فرات الحكومة أن تعالج هذه الحركات بقانون يزجرها ، ويفتح ابواب السجون للمضربين ، والمحرضين

وفى فبراير الماضى سنة ١٩٥١ ـ اضرب سبعون ألف عامل فى جنوب بلجيكا ـ كما نشرت الاهرام فى عددها الصادر بتاريخ ١٥ ـ ٢ ـ وطالبوا برفع اجورهم ٥ ٪ ، فلم تستصدر الحكومة قانونا مماثلا للقانون الذى اصدرناه ـ بل اجابت مطالب العمال .. !

وفى نفس ذلك الحين ، أو قبله بقليل . اضرب عمال السكك الحديدية بامريكا ... اضربوا وجيشهم المحارب فى كوريا يتدحرج فى مجاهلها ، ويقاتل ، ويتلقى الضربات الشداد مما يجعل الاضراب حالئذ جريمة وخيانة ـ فماذا فعل ترومان . ؟

تجيبنا جريدتنا الاهرام والمصرى بتاريخ ١٩٥١/٢/٩ « ان المضربين حنثوا فى كلمتهم مع الحكومة ، ونقضوا اتفاقية عدم الاضراب . كما لو كانوا حفنة من الروس » .. !

هذه هى النكتة المرحة التى استقبل بها « ترومان » الاضراب والمضربين ، ونقلتها عنه صحافتنا

وماذا فعل أيضا ..؟

عندما ازداد الاضراب اتساعاوخطرا ، أمر بفصل الذين لا يعودون الى أعمالهم ـ ولكنه قبل ذلك أمر برفع أجورهم فورا .. بل وجعل الزيادةالجديدة رجعية من عام ١٩٤٨ !

أفلم يكن « ترومان » قادراعلى تحريم الاضراب بقانون ؟

نعم ـ وكذلكم كانت بلجيكاقادرة .. ولكن مثل هذا القانون يعتبر تحديا لكرامة الشعب ،واهدارا لحريته ، وهو أمر لا يقدر عليه « ترومان » ولوأوتى بسطة فى الحكم .. وبسطة فى النفوذ ..!

نحن لا نشجع الاضرابات ..وليس هناك فى عالم العقلاء من يشجعها ـ فهى تشل حركةالامة ، وتهدر من عمرها وقتا نفيسا بلا انتاج ولا عمل ..

ولكننا نرفض أيضا ، أن نعامل معاملة العبيد الذين تشهر دائما فى وجوههم السياط ..!

وثقوا أن هذا السرف فى التقنين يفقد القوانين قيمتها ووقارها ، ويؤلب عليها الناس الذين ينظرون اليها آنئذ نظرة فيها مقت وعداوة

ونحن حريصون على كرامةالقانون وسيادته حين ندعو الى القصد والاعتدال فيه حتى نتيح للجتمع فرصة حبه واحترامه ـ فالاسراف فيها فوق انه يصورنا أمام العالم أمة تعيث فيها الفوضى والهمجية ، يبذر فى النفوس بغض القوانين برمتها ، ويحفز المجتمع الى التحايل عليها ـ واذا تكونت فينا عادة التحايل ، فقد فقدنا كل أمل فى امتثال القانون ولوكان عادلا وفاضلا ..

أو يظن الحاكمون أن القوانين على كل شىء قادرة ..؟

فلنأخذ العبرة من قانون الاضراب الاخير .. لقد توعد بالعقوبة المحرضين فهل اختفى التحريض ..؟

كلا ـ فقد نشرت جريدة الاهرام بعد صدوره بيومين أو ثلاثة، وبخط بارز مثير «سبعون ألف عامل يضربون» وساقت أخبار الاضراب البلجيكي بأسلوب فيه اغراء كثير ..

وكتبت كذلك «أخبار اليوم» على أثر صدور القانون بعنوان «الازهر يواجه مشكلة جديدة»!

وصاغت الخبر صياغة محرضة مشعلة دون أن يستطيع القانون مهما حسابا ـ فقالت :

«.. وسيترتب على ذلك حرمان ١٢٠٠ متخصص من الامل فى الترقى الى الكليات .. وقد علمنا أن هذا الموضوع سيثير أزمة جديدة فى الازهر»!!

ان هذه الكلمات مثيرة للازهريين لاشك ومع هذا فقد قيلت على سمع القانون وبصره ثم لم يملك ازاءها شيئا .

ولقد كانت صحافة الوفد تلعب نفس اللعبة وهو فى المعارضة. فعندما وقف صدقى باشا بمجلس الشيوخ فى ١١ مارس سنة ١٩٤٦ يدافع عن تصرفه فى الغاء جريدة «الوفد المصرى» قال : انها تدعو الى الثورة بطرق ملتوية وتلامنها هذه الفقرة:

«ان البلاد فى ثورة ، والثورة لن تخمد مادام فى الشعب المصرى دم يجرى ، او عرق ينبض .. ـ تنتهى اليوم المهلة التى طلبها صدقى باشا من وفد الطلبة حين قابلوه وطلبوا منه مطالبهم القومية .. ترى ما الذى أعده صدقى باشا وقد أجابه الطلبة الى رغبته .. لقد انتهت المدة .. فما ذا فعل .. ؟! »

***

ان القانون فى بلاد الاحرار خادم عاقل .. وفى بلاد العبيد سيد مستبد .. وليس يكفى ان نزعم اننا أحرار ، فللحرية سماتها ، وعلاماتها ..

ولقد قال حكيم : « أرونى قوانين أمة من الامم، وأنا أدلكم

على نصيبها من الغنائم ، أو الانحطاط ..

وهذا حق .. حق مثلما .. لأن الدولة التي تصاب بأمراض كثيرة تكون دولة غير طبيعية ودولة عاجزة .. ومن لا تأمن حتى تستمرئ هذه المسألة الرديئة ، فتصنع كما صنع الحاكم بأمر الله .. حين وضع القانون في خاصة « الملوخية » بيديها أول النهار ، ويمزقها آخره ..!

وكثيرا ما تذهب المحاكم الدستورية مذاهب شتى للدستور ، في نصه وروحه .. وكثيرا ما تذهب بالقانون الوضعي لا أعلم .. فتفسره السلطة التشريعية تفسيرا تفسيريا ..

قال مثل هذا القول نواب ممتازون في جلسة ١٩٤٨/٤/٢١ ـ وكانت الحكومة تعرض مشروعا جديدا تعدل به نصوص القانون رقم ١١٧ لسنة ١٩٤٦ ، الخاصة بمعاقبة من يحبذ أو يروج المذاهب التي ترمي الى تغيير مبادىء الدستور الاساسية ، أو النظم الأساسية للهيئة الاجتماعية بالعنف ، أو الارهاب أو بالتهديد بأية وسيلة أخرى غير مشروعة .. وأرادت الحكومة بمثلها أن تضيف فقرة جديدة الى المادة باضافة المواد ـ ٩٨ ا ، ب ، ج ، د ، هـ ، التي أضيفت فعلا ..

فوقف بعض النواب صارخين .. محذرين من عواقب هذا الافراط ـ ولا من يسمع او يعتبر .! ومع هذه الاضافات الزاجرة وجدنا النشاط الذي وضعت تلك المواد لمطاردته ينمو وينتشر .. فماذا صنع القانون المسرف على نفسه وعلى الناس .؟

والآن لنستمع الى كلمات هؤلاء النواب المحترمين (١)

***

حضرة النائب المحترم الاستاذ حنفي الشريف ، قال :

«انه يعارض مبدأ هذا التشريع لانه لو كان في مصر حزب شيوعي

---

(١) مضابط مجلس النواب جلسة ١٩٤٨/٤/٢١

يعمل علنيا ، لكان في وسع الحكومة أن تحكم الرقابة على صحفه ، ومجلاته ، وصحفه .. ثم قال :

« ان قيام هذه القوانين قد أدى الى قيام الخلايا السرية التي تعمل الحكومة جاهدة للقضاء عليها .. وقال :

«انه يطالب الحكومة بأن تدع حزبا شيوعيا ينشأ في مصر ، فان ذلك أبيح في انجلترا وفرنسا وايطاليا .. وان هذه المذاهب تدرس في المجامعة ، ويمتحن فيها الطلبة ، وقد يكون من بينهم من اقتنع بها واعتنقها ، وان محاربة هذه المذاهب تجعل الشيوعيين يظنون أنها صالحة .. لكن الحرية اذا تركت .. تنظم نفسها .. »

***

وقال النائب المحترم علي بك راتب :

« انه يوافق الحكومة كل الموافقة في أن تفرض ما تشاء من عقوبات على من يحاولون بالقوة أو الارهاب تغيير أصول الحكم .. لكنه لا يوافقها مطلقا على الحد من حرية الذي يفكر أو يكتب .. »

***

وقال النائب المحترم فكري بك اباظه «باشا» :

«ان التشريع المعروض يخالف الدستور ، والمواثيق الدولية التي ارتبطت مصر بها — وانه يتعارض مع احكام المواد السابعة والرابعة عشرة ، والعشرين ، والسادسة والخمسين بعد المائة من الدستور .. »

ومضى يتساءل : ماذا يعني المشروع المعروض بمحاولة سيطرة طبقة على اخرى .. وما هذه الطبقة ..

اهي الارستقراطية .. ام الوسطى ، ام الشعبية ؟! »

***

ولكى أدلل على مرونة القانون وتميعه - وهى مرونة ضد المتهم غالبا ، خاصة فيما يتعلق بالحرية، أذكر تجربة شخصية لى فقد اتهمت فى كتاب سابق بتهم عدة ...

وكان منها الدعوة للانتقاض على الدستور ، وتغيير المبادىء الاساسية للهيئة الاجتماعية

وكان تكييف الاتهام فى التحقيق على هذا النحو ..

اننى ، وان لم أكن قد دعوت الى استعمال القوة .. الا اننى روجت لمذهب ، قام فى بلاد اخرى بالقوة .. !

ياسبحان الله .. !

اذن ، فالترويج للاسلام جريمة لانه قام فى بلاد كثيرة بالقوة ..

والترويج للاستقلال جريمة - لانه لا ينال الا بالقوة ..

والترويج للحرية جريمة - لانها انتصرت فى بلاد اخرى بالقوة .. !

وهكذا تطلق الحكومات ، القوانين فى اعقاب المواطنين لتنال منهم شر منال .

وكل جائع يقول اليوم : ياكبدى . ! شيوعى

وكل كاتب مخلص .. شيوعى

وكل ذى شكاية ، ومظلوم .. شيوعى

وحكام اليوم ، كانوا شيوعيين فى نظر حكام الامس ..

وحكام الامس ، شيوعيون فى نظر حكام اليوم . .

وكلا الفريقين ، شيوعى فى نظر حكام الغد ..

والجانب المضحك فى هذه المأساة يجعلنا اقرب الناس شبها بجحا .. لقد اراد ان يتخلص من مضايقة بعض الغلمان له ، فدلهم على عرس موهوم . . ثم عاد المسكين ، فصدق نفسه ، وانطلق

يعدو وراء الفلمة نحو اكذوبته التي صدقها .. !

اننا ايضا ، نضع القوانين احيانا لنلتمس بها للابرياء التهم والعيوب .. ثم نعود ، فنصدق انهم حقا متهمون .. ؟ !

والجانب المزعج فيها .. ان كل حكومة تلي الحكم تشرع القوانين التي تحميها وتبقيها .. كأنها من الخالدين .. ! وتتعمد ان تجعل لكل قانون بابا كبيرا يتسع لمدخل كل من تستضيفه .. حيث يفضي الى دهاليز من ورائها السجون والظلمات .. !

ومثل ذلك ، وما اكثر الامثال ـ مانجده في مؤخرة المادة ١٩٨ ، ب ، ج ، د ، هـ ـ وهو :

« .. متى كان استعمال القوة او الارهاب او اية وسيلة اخرى غير مشروعة ملحوظا في ذلك .. »

اما القوة والارهاب ، فحسن هذا .. ولكن ما مدلول عبارة « او اية وسيلة اخرى غير مشروعة » .. ؟

ان كل وسيلة مشروعة تستطيع الحكومة ، والبوليس معها ان يلبساها لباس اللا مشروعية والجريمة . ثم يقدماها للقضاء بهذا الوصف الزنيم ..

وكيما تزداد المسألة وضوحا نستشهد ايضا بالمادة (١٧٦) عقوبات ..

وهي « يعاقب بالحبس مدة لا تتجاوز سنة ، وبغرامة لا تقل عن عشرين جنيها ، ولا تزيد عن مائة جنيه ـ او باحدى هاتين العقوبتين . كل من حرض على بغض طائفة او طوائف من الناس ، او على الازدراء بها .. الخ »

ان الغموض الشائع في عبارة « بغض طائفة ، او طوائف من الناس .. » غموض مقصود .. وهذه العبارة على ضآلتها بئر لا قاع له يستطيع ان يبتلع في لا نهائيته الشعب كله ثم ينادي في سعار وجشع : هل من مزيد .؟

بغض طائفة من الناس .. اى طائفة تمنحونها هذه الحماية ؟

هبوا اللصوص انقوا لانفسهم نقابة .. ودعونا مثلما دعا الله الى بغضهم ـ أتكون آمين .. ؟

سيقولون : لا .. ومن يدرى ـ ربما تكون نعم .. !

وهبونا ازدرينا روح التجمع السائب التبدى فى تصرفات آلية الاقطاع الذين لا يسهمون مع الحكومة ولا مع الشعب فى تحقيق آماله ـ أتكون آمين .. ؟

سيقولون : نعم .. !

لقد حدث هذا فعلا .. وانى لاعرف كاتبا ـ لعله انا ـ ارادت النيابة ان تقتل له من هذه المادة قيدا غليظا .. ووجهت اليه تهمة التحريض على بغض طائفة من الناس .. ثم تبين ان هذه الطائفة هم الاقطاعيون .. !

اى فارق بين رجل يسرق سعداء .. وآخر يسرق تفتيشا .. ؟

اى فارق بين رجل يقتل فردا .. ورجل يقتل شعبا .. ؟

بل استغفر الله .. فان الفارق عظيم جد عظيم ..

اننا نريد ان نحب قوانيننا ، ونحترمها . لانها تمثل العقدة الحيوية فى شخصية الشعب ، والطريق لهذا ان تكون مقتصدة واضحة تشرف الحكومة التى تضعها ، والشعب الذى يلتزمها .

واسمعوا ما يقوله « توماس بين » :

« عندما تستطيع دولة ان تقول ان فقرائى سعداء لايشكون عسرا .. .

« وسجونى تصطفق ابوابها لا تجد من تؤويه .. .

« وقوانينى وفيقة لا تكلف المواطنين حرجا .

« عندئذ فقط تستطيع ان تفاخر بدستورها وحكومتها .. »

الشمول بعد القصد .

واذا انتهينا من الحديث عن وجوب الاعتدال والقصد في قوانيننا ـ مضينا متحدثين عن وجوب شمولها ـ وبسطها نفوذها ..

لقد وفد على عمر بن العزيز وفد بعض البلاد ، فسألهم :

كيف تركتم الناس .. ؟

قالوا : تركنا فقيرهم موفورا ، وعاتيهم مقهورا ، ومظلومهم منصورا ..

فقال : الحمد لله ـ لو لم تتم واحدة من هذه الا بعضو من اعضائي لكان عندي مرضيا .. !

بهذا الروح الكبير حمى ابن عبد العزيز سلطة القانون من اصحاب النفوذ ، والمؤهلات الخاصة .. !

ورعى الذئب في عهده مع الغنم .. دون ان يمسها منه جنف او عدوان .

وحمل عمر بن الخطاب عصاه في يده ورفعها الى اعلى ..

ثم سمى الله تعالى .. وهوى بها على ظهر ابنه وولده وقال : افي كل يوم تأكل اللحم ، والناس جياع .. ؟

كل كما يأكل أبوك .. يوما خبزا وزيتا .. ويوما خبزا وملحا .. ويوما خبزا وماء .. !

ووقف ابو بكر يوم ولي امر الناس ، ووقف التاريخ تجاهه يتلقى من بين شفتيه هذا القسطاس :

« القوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه ـ والضعيف فيكم قوي حتى آخذ الحق له »

فيا ايها الذين تلوذون بالاسلام عندما تصرخ الامعاء الجائعة ..

ويا أيهـا الذين تحتمـون بهعندما تتململ الشعوب الخاضعة

ويا أيهـا الذين تتظـاهرون بالخوف عليه من أولى الناس به .

هذا ـ هو الاسلام .

وهـذا هو احترام رجـاله للقانون

ولقد استمعنا من قبـل الى الملك وهو يلقى على وزيره خطابه التقليدى . أيام المصريين القدماء فيقول له :

« اذا جـاءك مستضعف من مصر العليا أو السفلى ، فاحرص على أن يجرى القانون مجراه فى كل شيء .. واعلم ان المحاباة بغيضة الى الاله .. وانظر الى المقربين للملك ، نظـرتك الى البعيدين عن بيته .. »

ان سيادة القـانون ضرورية لسيادة الامة ـ والويل لمجتمع ينكمش قانونه امام عليته وكباره عندئذ تشيع فى شـخصيته الفوضى والاضمحلال والاستهتار

وانا لنمر فيما نقرأ عن الدول الاخرى بمشاهد تبهر الابصار .

حدث يوما ـ وهذه قصـة ترويها أخبار اليوم بتاريخ ٥/٧ سنة ١٩٤٧ ـ أن تزوجت بنت ستالين ، ورجت أباها أن يهيىء لها سكنا تستأجره ، فرفض حتى يحين دورها ـ كبنت أى كناس يكنس الشارع ويحمل القمام . . !

وعلم بعض الوزراء ، فجمعوا المجلس سرا ، وقـرروا تسـليم بنت المارشال ستالين شـقة ذات غرف ثلاث .. !

**

وحدث أيضا ـ أن عاد ابنه الاصغر من ميدان القتال مزهوا بالنصر ، فانطلق بـين حانات موسكو ومراقصهـا مفتونا بشبابه وحسبه .. فأصـدر « بريا » مدير البوليس أمـره باقصائه فورا الى قرية نائيـة لمدة عام كامل . .

وسمع « بريا » أن الفتى ساخط على هذا القرار ، فاستدعاه وقال له : ـ لقد أصدرت أمرى هذا رحمة بك قبل أن يتدخل أبوك فى أمرك .. وأنت تعلم جيدا انى لو أحلت الامر الى أبيك ماكان جزاؤك أقل من النفى خمس سنوات كاملة .. !

* *

ويوم أحب ملك الانجليز .. « مسز سمبسون » .

أى ذنب جناه حين احب . !

لكن لبلاده تقاليد أقدس فى قلوبهم من القانون ..

ألم يكن الملك بقادر على أن يحطمها . . ؟

لا ـ انه لايستطيع .. لانه يحترمها .. ولقد انحنى لها ..

وترك عرشا يطل من فوقه على دنيا سعيدة مديدة .. وحمل عصاه على عاتقه ، ومضى يشخن فى أرض مجهولة ، رضى النفس مقتنع الضمير ..

لقد احترم فى اللحظة المفرية الحازمة أمته واحترم تبعات الملك وشعائر البلاد .

وماذا أقول .. ؟

ان التاريخ مفعم بالامثال يضربها للناس .

ولكن أكثرهم لايعقلون . .

* *

دعوا القانون يسد ويسيطر

فاذا سرق الفقير رغيفا وادخل السجن ..

وسرق الكبير دولة . . فليدخل السجن أيضا . .

اما ان ننحنى أمام اثمه وسرقاته ثم ننشد :

ملك الملوك اذا وهب ... لاتسألن عن السبب
الله يعطى من يشاء ... فقف على حد الادب

فهذا هو ـ سوء الادب . !

لقد علم عمر بن الخطاب أن معرفة الناس داخلية الصغير ، من مخبأه فريسة دليلها ـ قد فقدت له فضيلة من الجبل والليل .. فأرسل برقاً من يحاسبه العمال الذين ... يتلاعبون بجيوب فقراء ـ حتى إذا التقى منهما جميعاً قال :

.. أين تملك يا عمرو .. ؟

فأجاب : يا مير المؤمنين ... لم ؟ فقال محمد بن مسلمة لعمرو ... ـ

ـ لا يسعنا مكانك واحدة .!

فرجع عمرو ، ولا يملك إلا الذهاب دون القانون ويقر في قريته الماء ـ بل بلغ من البلغ الذي يريد

***

أن من الخير أن نعترف في شجاعة بمحنة القانون في بلادنا يمكن أن نتفق أن الحكومات ليست وحدها سبب هذه المحنة ـ بل نحن معها .. فنحن شركاء ..

فمن يسلم للوساطة التنفيذية من أدنى ـ يوجد كثيرون من الموظفين الذين لا يحترمون أقل احترام ـ التزاماتهم إزاء العدالة والقانون والشعب ـ هم يعرفون أنفسهم كما يعرفون خطاياهم .

أولئك الذين يعطلون تنفيذ الأحكام من أجل رشوة حرام .. وأولئك الذين يضللون القانون عن جناية رجائيا من أجل دراهم معدودات ..

وأولئك الذين يحرفون القانون عن مواضعه تحقيقا لغرض .. أو استجابة لشهوة .!

فلنؤد واجباتنا نحو القانون في ذمة وشرف وليبذل الحاكمون من ذوات أنفسهم مزيد احترام للقوانين ، فيعمموا تطبيقها ، ويعلنوا سيادتها .. ومزيدا من الفهم لحكمة مشروعيتها ، فلا يسرفوا فيها .

وليمكنوها من سكان القصور ، وأبناء الأكرمين .

« ... وعندما أغلقت باب وزراء رئيس الوزراء ، حق جيمس اللورد « بيفر بروك » صاحب جريدة الديلي اكسبريس ، وقبل ان أروى له مادار بيني وبين المستر بلدوين قال لي :

ـ لقد ضاع الامل الاخير في المحافظة على صدره صحف لندن لقد قرر رؤساء تحرير الصحف أن ينشروا تفصيلات الازمة التي بينك وبين الحكومة ..

« ورضخت للعاصفة .. وشعرت بأن الدنيا قد بدأت تظلم في وجهي .. ولما نظرت الى ناحية مطابع « فليت ستريت » شعرت كأن سحبا سوداء تخرج من هذه المطابع ، وتتجه الى قصري ..

« لقد كان يوما سيئا .. !

« وقد كنت أتوقع ان تتحدث الصحف عن الازمة في صراحة مؤلمة . ولكني لما قرأتها في صباح اليوم التالي شعرت بذهول ثم باشمئزاز . !

« هل يمكن أن يكون هذا الذي يتحدثون عنه هو الملك . أو انه « هلفوت » عادي .. ؟

« حقا ان الصحافة تستطيع أن تخلق ، وتستطيع أن تهدم . . . ! »

ليس هناك أروع من هذه الكلمات لنبدأ بها حديثنا عن الصحافة ـ والصحافة هي أعصاب الوعي في أمتها . . . وهي من أهم ان لم تكن أهم عناصر الشخصية الشعبية ..

وان لها حقوقا ، وعليها واجبات

فأول حقوقها ـ الحرية الكاملة

١ ـ **حرية الانباء** . وتشمل حرية التلقي ، وحرية الاداء

ج ـ حرية الرأى والنقد والمعارضة . .

ومن سوء حظ مصر ان صحافتها لا تتمتع بما يجب من حرية . . وحكوماتنا في مباراة هائلة نحو مضايقتها وتكميمها . .

وحين نفاضل بين عهد وعهد نجد أقومها طريقة هو الذى يهبط فيه منسوب الاضطهاد

وليس الذى يبرأ برءا كاملا من هذه الآفة الخبيثة .

فى يوم ١٩٥٠/٩/١٧ نشرت جريدة المصرى حديثا لمالى فؤاد سراج الدين باشا وزير الداخلية وازن فيه بين ماذا . . ؟

بين عدد مرات المصادرة فى عهده ، وعددها فى غير عهده من العهود ـ فقال :

« بلغ عدد القضايا الصحفية فى سنة ١٩٤٦ ـ ٢١٣ ـ قضية »

وبلغت عدد الكفالات المدفوعة من الصحفيين المتهمين ـ ٢٧٦٥ ـ جنيها . .

« وحدث ان جريدة واحدة هى البلاغ ، تعرضت خلال أربعة اشهر لاربعة عشر تحقيقا ، وحبس عشرة من الصحفيين دفعة واحدة فيما نشره المصرى بشأن الاقتراح الكولمبى . . »

« وفى عام ١٩٤٥ ، ابان الاحكام العرفية ـ بلغ عدد القضايا الصحفية فى ثلاثة اشهر فقط هى ـ اكتوبر ، ونوفمبر ، ـ وديسمبر ـ ٣٧ ـ قضية صحفية وجملة الكفالات ـ ٤٠٠ ـ جنيها ، على الرغم من وجود الرقباء الذين كانوا يحذفون كثيرا كما يشاءون . . »

ثم ذكر معاليه ـ عدد القضايا الصحفية فى سبعة اشهر من عهده وهى المدة الواقعة بين اول يناير سنة ١٩٥٠ ، وآخر يوليو سنة ١٩٥٠ وكانت (٣٢) قضية . . !

لا جرم ان الارقام التى ساقهامعاليه خاصة بالسنوات الماضية أرقام بشعة مزلزلة . .

ولكن ما دلالة هذه الموازنة فى معناها العميق . . ؟

دلالتها ان مضايقة الصحافة ، وابسالها ، ومصادرة حريتها قائمة فى هذا العهد وفى غيره من عهود .

وان الفارق بين عهد وآخر سائل فقط فى الكم والعدد . .

ونحن نعلم ان العدد فى هذا الامر ، مسألة زمن . .

فاذا كان محصول الحكومة القائمة فى سبعة اشهر (٣٢) قضية — فكم يكون المحصول فى خمسة اعوام . ؟

لقد ذكر معاليه ان مجموع الكفالات التى دفعتها الصحف المضطهدة عام ١٩٤٧ هو (٢٢٠٠) جنيها .

فما قوله ، دام فضله — فى ان دارا واحدة من دور الصحف هى « دار أخبار اليوم » قد بلغ ما دفعته وحدها من كفالات — ١٢٥٠ — جنيها فى أسابيع معدودة . . ؟ !

اننا بهذا النقاش لا نهدف الى احراج وزير ، او التشهير بحكومة معينة . . فنحن من بداءة رحلتنا فى هذا الكتاب نلقى اللوم دائما على روح الحكم وسلائقه وطرائقه . . اما الاشخاص فلا . . لانهم زائلون

أين تقدير حكوماتنا للصحافة . . من تقدير ذلك الملك العظيم السابق الذى شعر كأن سحبا سوداء تخرج من مطابع الصحافة وتتجه نحو قصره . . ؟

ثم أين احترام صحافتنا لواجبها ، ولقارئها . . ؟

ان للصحافة فى توجيه الرأى العام أثرها البليغ ، فهى قادرة على هدايته وعلى اضلاله . . وبقدر ما تقدم له من عون ، تقدم لنفسها ايضا — فكلاهما للآخر قوة ومساك . .

ولعل صحافتنا الموقرة تجد من الشجاعة ما تصغى به لهذه الحقيقة ..

وهى ـ ان الاخلاق التجارية تسيطر عليها اكثر مما يسيطر الواجب الادبى .. !

وقد يكون عذرها حاجتها المطردة الى الربح والمال ..

بيد ان ذلك مستطاع ميسور مع الاحتفاظ بالمعنويات الفاضلة التى تجعل منها فى بلادها نبوة هادية ..

ان الروح التجارى هو الذى يدفع الصحافة احيانا الى الاسراف الشديد فى الولاء ، لتظفر بقلب الحكومة وجيبها ..

وهو الذى يدفعها حينا آخر الى التطرف فى الشنآن ، لتظفر بعواطف الجماهير التى تسارع بحكم طبيعتها الى البغض اكثر مما تسارع الى الحب ..

وامامى الآن ركام هائل من الصحف الملوءة بالمتناقضات وسأمد يدى نيابة عنك ، واتناول عفو الصدفة صحيفة منها اى صحيفة .. ثم نقرأ فيها معا .. ونبحث بعد ذلك عن عدد آخر من نفس الصحيفة يكون قد صدر فى عهد آخر ـ ولننظر ..

« .. واذا كان المنادون بالحريات ـ يريدون ان تنصرف الحكومة عن واجبها فى صيانة النظام ، ليعبثوا به ، ويسخروا بعض «الصعاليك والمفتونين» لتنفيذ أغراضهم الخبيثة ، وجعل مصر مدينة مفتوحة للشيوعية والفوضى .. فليبحثوا لهم عن « لعبة » اخرى قبل ان ينفض « السرك » وينصرف عنهم المتفرجون »

***

اقرأتم هذه السطور ..؟

اقرأوا مرة أخرى كلاما آخر قالته بعد ذلك بعام واحد من عمرها المديد ..

.. افتحوا ابواب السجون التى ملئت بشبابنا المثقف متهما بالشيوعية .. والله يعلم انه ليس فى مصر شيوعيون سوى اولئك الذين يقضون حياتهم بين سرادقات الشتاء الحمراء بمصر وسهرات الصيف الحمراء بباريس .. »

ان الحرية ـ هى .. هى سلم تتغير .

وحركة اضطهادها تسير على الدرب المرسوم .. فما سر التناقض فيما كتبته الصحيفة . وفيما تكتبه زميلاتها الكريمات .؟

ان الاتجاه النفسى .. تضير فتضير معه كل شىء .. والجماهير القارئة هى التى تدفع ثمن هذا العبث من اعصابها ، وسكينتها ، ونهارها ..

اننا بالاشواق الى ذلك اليوم الذى نستمع فيه عن صحفى مصرى ـ طرق احد الكبراء بابه .. وقدم له « شيكا » بمائة الف جنيه مساوما به على مصالح الشعب .. فيصنع كما صنع الصحفى الانجليزى .. ويدعو حاجبه لاصطحاب الكبير المحترم الى الباب ـ لانه يجهل الطريق .!

***

ان الصحافة هى الرئة التى تتنفس بها الشعوب .. وتصوروا لو ان رجلا ذا جاه ونفوذ ومال استأجر رئتى انا ـ لتتنفس لحسابه ، لا لحسابى ، كم لحظة من العمر استطيع بعدها ان اعيش ..

لقد كان « امرسون » صادقا حين قال : الصحافة الحر رسول من قبل الله للشعب .

نعم ـ انها لكذلك ..

فهى التى تكشف عن بصره الغشاء ، فيرى ..

وتزيح عن آذانه الوقر ، فيسمع ..

وتمزق عن وجهه الحجب .. فيدرك كل شىء ويعيه .. انها

القوة التى تحيـــا بها الامة ..وتموت أيضا ..!

ونحن ندعوها الى العمل وفق تبعات هذه المكانة السامية التى بوأتها الحضارة اياه .

ج ـ الاحزاب ..

التعدد .. لا الوحدانية .

عنـدما يغم الطريق أمام أمة من الامم ، وتتفشـاها غواشى المسكنـة والذل ـ وتكون قـد عاشت أمدا طويلا فى قبضـة الجبارين ، فانها تحن دائمـا ،وتنزع الى شىء غير قليل مـن التخضع والتخشع .. والارتماء فى أحضان سيد واحد .. ليس له صنو ولا شريك .

وهذه هى العقبة الـكأداء التى تعانيها الديموقراطيـة وهى فى طريقها الى ضمائر هذا الطراز من الجماعات .

ان هذا الضمير لا يزال يبحث عن جبار جديد .. بعـد أن اصطنع له اسما آخر يهـواه ويطيـقه ـ كأن يسميه مثلا ـ الحزب الواحد ..المستبد العادل ..الشورى الغير ملزمة.. ولعل الشرق كله لا يزال يردد فى ايمان ونشوة الكلمة المعزوة الى السيد جمال الدين الافغانى : «ان يصلح الشرق الا مستبد عادل »

وقد يكون « جمال الدين » قائل هذه العبارة ـ وقد تكون من صنع أحـد المعجبين به ،وبالمستبد العادل ..

أصحيح هذا ..؟

أيمكن أن يكون الحاكم مستبدا وعادلا معا ..؟

كنا نقرأ فى الاحاديث المنسوبة الى الرسول ، وهى غير صحيحة ـ أن لله ملكا نصفه من ثلج ، ونصفه من نار .. فلا الثلج يطفىء النار ، ولا النـار تذيب الثلج ..!

اذا كان فى الامكان وجـــود مستبد عادل ، فهو هذا ..!

نريد أن نقـول لجمـــاهيرنا الحبيبة ـ هذا هراء ..!

والرجل الواحد .. والحزب الواحد ـ استبداد وافك ودمار.

لقد آمنت قبلا بالرجل الواحد وبالحزب الواحد .. أيام كنت أؤدى للآخرين تحية العوام ، كما يقول « اسكار وايلد » ـ التقليد تحية العوام لاصحاب العبقرية. أديت هذه التحية يوما .. لاناس طيبين ـ ليسوا على أى حـال متهمين بالعبقرية .. فلما بدأت أفكر لنفسى وعيت شيئا جديدا.

وأستطيع الآن أن أتصور ـ وتستطيع أنت أن تتخيل معى ساعة جلسنا اثر صـلاة الفجر نستمع لموعظة ـ وكنت يومئذ أومن بالرجل الواحد فى جماعة دينية .. جلس الشيخ يعظ ـ فقال :

من قال لشيخه لم ..؟ فقد حرم بركته .

قلت للشيخ يومها : ان أصحاب الرسول كانوا يقـولون له : لم ـ ولماذا ..؟

فأجاب: عندما تكون كأصحاب الرسول .. قل مثلهم ـ لم.؟

أجبته ايضا ـ والى أن تبلغوا انتم منزلة الرسول . سنظل نقول لكم : لم ..؟

وأشـهد ، وأنا الآن أشرف على الحوادث من مكان بعيـد لا أتأثر فيه بشهوة ولا غرض ـ أن شيخنا ذاك .. صورة صادقة لكل رئيس جماعة ، أو حزب فى مصر .!

كلهم يؤمنـون بأنفسهم ولا يزيدون ..

ولو كان الصواب والسـداد يقفان بجانب الرجل الواحد ، لكانا اذن من التفاهة والضآلة بحيث يـكفى لتحصيلهما عقل واحـد ، قد يكون مريضا أو موتورا ..

ان الدين يرفض حكم الرجل الواحد.. والدنيا له اكثر رفضا والحزب الواحد ، كالحاكم الواحد. كلاهما شر ، واستبداد وفي مصر خلق كثيرون يصرخون كلما تكاد تتسم الامور ، الغوا هذه الاحزاب

وهذا وهم مريض..! فالحقيقة ان ضعف الاحزاب ، لا تعددها هو مأتى البلاء .

فاذا قيل : ان تعددها علة ضعفها وفسادها لما يحدثه من فرقة وخلاف .. نجيب بأن التعدد في أحزاب دول كثيرة هو سبب قوتها وتفوقها، واذن فهو ليس مضعفا بذاته وطبيعته .. وعوامل الضعف والانحطاط آتية من اشياء أخرى سواه.. بيد اننا نتيطها به للتفسير السيكلوجي الذي اسلفناه .. وهو حنين الأمة التي طال انحناؤها للسيد الواحد، والحزب الواحد!

* * *

لقد عصف الحزب الواحد بالمانيا .. وقصم ايطاليا .. وترك اليابان عبرة واحاديث.. ولوث طبائع الأشياء زمام الاستبداد في تركيا فتعددت فيها الاحزاب، ومضى الحزب الواحد الذي كان حاكما بوزر سيئاته، بل وحسناته!

ولا تضربوا لنا الامثال بروسيا .. فالعبرة بنهاية المطاف ..

لطالما لهجنا ببركات الحزب الواحد المستبد في المانيا النازية ، وايطاليا الفاشية.. فاين ذهبا؟

وروسيا بين احد امرين ..

فاما ان تكون الحريات فيها سائدة مترعرعة. ومجالس الاتحاد فيها من القوة والنضج بحيث تؤدي دور الاحزاب المعارضة تمام الاداء... وعندئذ لا يحتج بها علينا مع احتفاظنا بحقنا في استبعاد بلوغ «البولشفيت». هذا المنسوب الذي يرشحها للنهوض برسالات الاحزاب

واما ان يكون حزبها الواحد صغيرا .. لاشيء معه، ولا معقب لحكمه .. وعندئذ ، فالمصير المدمر للحزب الواحد، وللشعب الذي يرتضيه في الانتظار

* *

يجب أن نعلم أن مصر لا يؤودها اختلاف أحزابها .. بل تناحر هذه الاحزاب .. اما الخلافات فلا مفر منها ، وهي باقية في الناس ما بقي لكل منهم عقله الخاص ، ومشاعره الخاصة . والخلاف الذي لا يجاوز دائرته، ولا يتعداها ينفع ولا يضر . لانه الوسيلة الناجعة لتقليب وجوه الرأي ، وكشف اللثام عن حقائق الاشياء

والذي يرهقنا بطغاوته الخصومة لا الخلاف .

منذ أربعة أعوام نشرت صحفنا انباء احدى جلسات مجلس العموم البريطاني ـ حيث وقف تشرشل يتهم بيفن بالعجز وبالعمل لتصفية الامبراطورية البريطانية

فما كان جواب « بيفن » ـ ولعلها اقسى كلمات يستطيع أن يستعملها : الا ان قال :

« ليس في بريطانيا من ينكر أن تشرشل هو عبقري الحرب الذي كسب لبلادنا النصر .

« ولكنه ـ وهذا عيبه ـ يستجيب احيانا لنداء اغراضه الخاصة »

***

وصحيح ان هناك من الساسة والزعماء من يتهاترون . والعراك التاريخي الذي استعر بين دزرائيلي وغلادستون لا يزال كأنه مشبوب الاوار .. ولكن الارض المشتركة بين الاحزاب جميعا مهما تختلف وهي ـ مصالح البلاد ـ لا يمكن أن يفرط فيها حزب .. أو يساوم عليها من أجل الكيد والاغاظة لخصومه السياسيين

وليس معنى هـذه المقارنة اننا نتهم زعماءنا بالخيـانة . . لا ـ وانما نتهمهم بالضعف . . الضعف حين يتحابون . والضعف حين يتخاصمون . .

***

ألم تسـمع يوما أن حكومة العمـال انتدبت تشرشل لبعض المهمات السياسية الخطيرة خارج البلاد . . ؟

ان هذا لا يمكن أن يحـدث فى بلادنا أبدا . .

فالحزب الذى يستأثر بالحكم يستأثر معه بكل شىء . . ويرفض الافادة بمـا فى الاحزاب الاخرى من مواهب . . بل هو لا يعترف بموهبة ولا ذكاء فى غير حزبه . .

ان حزبه وحده هو المتخـم بعشرات من أمثال بونابرت . . وعشرات من طـراز عمرو بن العاص . . !

***

ان الحزبية الرشيدة المتعددة من أهـم المقومات لشخصية الشعوب الحرة .

فلنغتبط بتعـدد الاحزاب عندنا ، ولا نجزع . . ولنطالبها باصـلاح ذات نفسها . ونفث روح النظام ، والديموقراطية ، والشرف فى كيانها .

وهذه مقترحاتنا : ـ

١ ـ **الرئاسـة للأصلح** ـ ان رئيس حـزب ما هو رئيس الحـكومة يوم يظفر حزبه بالأغلبية ـ لذلك نجد رئاسـة الحـزب ليست من مسائله الخاصة التى يحق له الاستئثار بها . . بل هى قبل ذلك من حق الشعب الذى قد يحكمـه هذا الرئيس يوما ما . .

ولهذا يجب أن يختار الرئيس عن وعـى وبصر . وان يكون الرجـل الذى تتمثل فيه قوة الحزب وقمـة نضوجه . . وأن

يجدد اختياره .. أما الرئاسة مدى الحياة ، فهى ترادف الفساد مدى الحياة ..

***

٢ ـ افساح الطريق للاكفاء .. والاحزاب فى الامم الراقية .

مدارس تربى الشباب ، وتعده لأدوار البطولة ، وقيادة السفين .. ولكنها عندنا «بورصات» للمضاربة والاقتناص .

وانه لشىء محزن ومخجل أن يكون النفاق جواز المرور والوصول فى جميع أحزابنا ـ فأنت كلما كنت بعيدا من الفطنة تكون قريبا من الزعيم .. وسبب ذلك فيما نعتقد ضعف الزعماء وهزالهم . فرئيس الحزب اذا كان قزما ـ أبعد عن نفسه المماثلة حتى لاتنكشف عورته .. وتنفضح قماءته ..

وهؤلاء الصغار الذين يشبعون غرور رئيسهم بالتزلف والملق ، هم الذين توسد اليهم فيما بعد مناصبنا الكبرى والوسطى . .

فاذا أرادت الاحزاب ان تكون عامل بناء فى بلادها ، فلتفسح الطريق للاكفاء والصالحين فيها ـ والا انقلبت بؤرة تورد للأمة الميكروب والآفات .

***

٣ ـ المنهج ـ المنهج هو الحزب ـ وأحزابنا هذه ما مناهجها؟

انها تهتف بالجلاء ، والسودان ، والعدل الاجتماعى . فاذا أتيح لاحدها الحكم ـ توسل لكل هذه الاهداف بسياسة مرتجلة ، وسلوك مضطرب ـ مما يدل على أنه كان فقط يهتف مع الهاتفين ويصرخ مع الصارخين دون أن تكون له فلسفته الخاصة ونهجه المستقل حيال مشاكل البلاد جميعا ..

ان فائدة المنهج للحزب لاتتمثل فقط فى أنه سيكون دستوره يوم يحكم ـ بل أهم من هذا أنه يربط الحزب بالشعب رباطا وثيقا .. لان المنهج نفسه يكون ثمرة اتصال الحزب بالجماهير وتحسسه آلامها ـ وبحثه أخص شئونها . .

ان الارتجـــال افسد علينا حياتنا .. الارتجـال فى الحكم ، والارتجـــال فى المعارضة .. والمضحك ان احزابنا يقلد بعضها بعضا حتى فى الفشل ..! وهذا هو سر ما نجده من تشابه بين سلوكها جميعا .

ان ارقى مظهـــر لسياسة الحزب ـ هو خطاب العرش ـ الذى يعبر به الحـــزب الحاكم عن نفسه ونهجه ونواياه ..

ولقد مرت عبر خطاب عرش كثيرة فى مضابط البرلمان . تكاد الفروق الدقيقة تعدم بينها .. وقطع على ســـيرى ، صوت شيخ جليـل ، وجدته قائما فى احدى جلسات مجلس الشيوخ يوم ٢١ يناير سنة ١٩٤٦ ـ يفسر نفس الظـاهرة ، ويندد بها .. فلنصغ له .. ان صاحب الدار ادرى ..

ـ حضرة الشيخ المحترم محمد بك خطاب : ـ

ـ حضرات الشيوخ المحترمين ـ خطاب العرش اســـاس من الاسس الهـــامة فى الحياة الدستورية ، ولو اتبعت الحكمة المقصـــودة منه ، لكان بناؤنا الدستورى الديمقـــراطى اقوى مما هو الآن بكثير ..

«اما الآن جميع خطابات العرش منـــذ سنة ١٩٢٤ الى سنة ١٩٤٥ ـ اظن ان عدد هذه الخطابات يبلغ حـــوالى الثلاثة والعشرين خطابا .. واذا قرأتم هذه الخطابات تجدونها جميعا كأنها نسخة واحـــدة من خطاب واحـــد ، مع بعض التعديل فى الالفاظ ـ لا فى الموضوع ـ بعكس الحال فى بريطانيا . اذ يمكن لاى عضـــو من حضراتكم ان يقرأ الخطاب ، فيقول : هـــذا خطاب حكومة العمـــال ، أو حكومة المحافظين ، أو حكومة الاحرار ..

« اذا كانت هـــذه الخطابات لا تتغير فى عهـــد من العهود ولا فى حكومة من الحـــكومات ، فما الداعى اذن لهذه الفرقة بيننا ، ولهذا الخصام المتواصل ..؟!

«الواقع ياحضرات الشيوخ المحترمين ان خطاب العرش بدأ أولا فى صفحتين ونصف صفحة وقد جاء فى هذا الخطاب القصير كل ماجاء فى خطابات العرش الاخيرة ..

أما خطاب العرش الاخير ، فقد زاد الله فى حجمه . واصبح فى خمس وثلاثين صفحة ـ وكنت أعتقد ان زيادة خطاب العرش من صفحتين ونصف صفحة الى خمس وثلاثين صفحة ـ أى بما يعادل ١٤٠٠ ٪ ، قد يعود على البلاد بخير ، لا بنسبة ١٤٠٠ ٪ ـ ولكن على الاقل بنسبة ٧٠٠ ٪ ، أو ٦٠٠ فى المائة أو حتى ١٠٠ فى المائة » (١)

***

اننا نفسر هذه الظاهرة بالافلاس . افلاس الحكومة ، وافلاس الاحزاب التى تنشئها وتكونها ، من المناهج المرسومة والدراسات الواعية ..

٤ ـ **ديموقراطية الحزب** ولكى نصحح شخصية الشعب ، يجب أن نصحح شخصية الحزب مادمنا نرى الحياة الحزبية من أهم مقومات الشخصية ـ شخصية الامة والدولة . وشخصية الحزب لا تكون صحيحة سوية حتى تصطبغ بالديموقراطية الحقة . فهل أحزابنا كذلك ..؟

انها ـ وهذه هى الحقيقة ـ أندية سياسية تضم المترفين الى العاطلين ـ مع محترفى السياسة والكلام ..!

انها منصرفة ، بل عازفة عن الشعب ومشاكله ـ مما أدى الى خلق جيل جديد لايؤمن بأحزابه ، ولا بزعمائه .. مع اننا فى أمس الحاجة الى الايمان بأحزابنا ، وبقادتنا . حتى

---

(١) مجموعة مضابط الانعقاد العادى الحادى والعشرين ص ٢١٥ .

لانتقسم على انفسنا ، وحتى نتطور ـ دون ان نتنكر لمحاسن ماضينا .

يا أيها الزعماء ـ تعرفوا الى الشعب .. وامشوا معه فى الاسواق ان كنتم تريدون لكم ، وله البقاء ..!

لقد سبقتموه فى المعيشة سبقا بعيدا .. فعجزتم عن ان تحسوا احساسه ، وتشعروا بشعوره . ومهما تحاولوا اليوم ان تتمثلوا ، او تتخيلوا آلامه وعناءه ، فان تستطيعوا حتى تعودوا اليه ...

كيف يحس رجل منهم ، تستقبله كل يوم مائدة متخمة بمناعم الطعام والشراب ـ احساس رجل اضنى امعاءه القديد اليابس المتبل بالذباب والتراب ..؟

لقد سكن غاندى فى حى « الكناسين » ليستطيع أولا ان يحس نفس الاحاسيس التى يعانيها سكان هذا الحى من المنبوذين .. ثم ليستطيع ثانيا ان يرفع عنهم آصار هذا التحقير من بنى وطنه الهنود ..

ونحن لا نكلف زعماءنا وسادتنا بمثل ما كلف غاندى نفسه .. لانهم لم يتمثلوا بعد فى وجداناتهم صورة صحيحة للزعامة الرشيدة .. انهم لا يزالون يرونها علوا فى الارض ، واشرافا على « المنبوذين » من مكان بعيد .

نعم . لن ندعوهم الى مساكنة الفقراء .. فتعالوا عن ذلك علوا كبيرا .

وانما ندعوهم ـ وحسبناهذا منهم ـ ان يعيشوا فى احساس الجماهير ، ولو على ضوء ما يقرأون من اخبارها وشكواها ، وأن يجوسوا ، ولو مرة ، خلال النجوع والكهوف .. خلال الظلام والبلى .. ليعلم الشعب ان زعماءه يذكرونه ، ويشاطرونه ... فتقوم بينه وبينهم علاقات انسانية متآخية .

وأن يكلف زعيم الحزب جميع نوابه وشيوخه بزيارة دوائرهم

زيارات دورية فاحصة ـ ويرفع كل عضو من هؤلاء تقريرا دوريا عن زياراته ومقترحاته

هذه هي بعض المقترحات التي تتيح لنا الانتفاع باحزابنا ولابد لنا من ان نقرر مرة اخرى ـ انه اذا كان لاحزابنا خطايا واخطاء .. فهي ليست اصيلة ولادائمة .. ووصفها بذلك تشاؤم لا مبرر له ولا دليل .

ووجود هذه الاخطاء لا يبرر التهوين من قيمة الاحزاب ، وحتمية قيامها ، كما لا يبرر ابدا المطالبة بالغائها ، او توحيدها .

ان غاية ما تثيره وتدعونا اليه ـ هو الاصلاح الحاسم السريع .

☆ ☆

دور الشعب في تقويم الاحزاب

وللشعب في اصلاح الحياة الحزبية دور هام . فعلى احدنا اذا شارك حزبا من الاحزاب طريقه ، ان يجعل صلته به صلة تعاون ـ لا تعصب .

اننا نفسد رجالنا وزعماءنا ، حين نؤمن بهم ايمان الدراويش بشيوخهم .. ونخون انفسنا خيانة كبرى حين نلاشي وجودنا وشخصياتنا في خضم الولاء الابله ، والثقة العمياء .

في عام ١٩٤٦ ـ كان أحد الزعماء يحرض الشباب جهرة على العمل لاسقاط الوزارة القائمة بحجة ممالأتها للانجليز برغبتها في مفاوضتهم ..

وسقطت الوزارة ، وجاءت وزارة اخرى . وقررت مفاوضة الانجليز . وهنا نلتقي بنفس الزعيم يحث الطلبة على الهدوء وينهاهم عن كل عمل قد يعرقل سير المفاوضة . فلما ذكروه بنفسه . وبكلماته في الامس الرطيب . اجابهم في خبث ودهاء :

ـ ان الشعب الانجليزي ثائر على حكومته ، وهو يطالبها برد

أبنائه المجندين بمصر وغير مصر من البلاد المحتلة . والحكومة البريطانية تعتذر عن تسريحهم أمام الشعب بأن هذه البلاد ومنها مصر ثائرة ضد بريطانيا ، فلابد من ابقاء جيش الاحتلال فاذا أحدثتم اى شغب انتفعت به الحكومة الريطانية فى اسكات شعبها اللحوح .

لم يكن الزعيم ـ كما سترى ـ يؤمن بحرف واحد مما يقول ـ ولكن الاتباع المستسلمين مصمصوا شفاههم اعجابا ، وانطلقوا يبشرون من وراءهم بهذا المنطق العجيب !

وأعجب الزعيم أيضا بذكائه فاستعرض وجوه جلسائه وقال :

ـ أظن اننا أحسنا اختيار الشكيمة .. ؟

وخرجت ليلتها أفكر : ماالذى أمسك بألسنة الطلبة عن مناقشة هذا المنطق المضلل المتهافت .. ؟

وأجبت نفسى : انه الايمان الاعمى بالزعماء . وانمياع شخصية هذه الدمى الآدمية وانطفاء نور الاعتداد فيها

فاذا شئنا تقويم أحزابنا ، لنفيد منها ، وننموبها ، فلنحتفظ بشخصيتنا ازاءها ..

وشىء آخر لا يقل اهمية ـ وقد يزيد . هو أن نجل ثقتنا عن أن نلقى بها تحت أقدام الذين لا يستحقون سوى الصفع والازدراء .

وأن نمنحها للذين هم بها جديرون فى أناة وقصد .

وشىء ثالث ـ هو أن نكون دائما ممثلين للامة فى الحزب .. لا ممثلين للحزب فى الامة ـ بمعنى أن نتوسل بالحزب لخدمة الشعب .. لا أن نتوسل بالشعب لخدمة الحزب

ج ـ القيم والمعايير

هذا ختام العناصر التى آثرناها بالعرض .. ودعونا للتواصى بها

حتى تتألف منهـــا للجماهـــير شخصية آمرة مسيطرة ..

ومعايير الامة هى منـــاط تقدمها أو انحطاطهـــا . ونعنى بالقيم والمعايير ـ تلك الادبيـــات والتقاليد النفسية التى تسيطر على وجدانها ، وتوجه نشاطها .

أرأيت أمة يسود فيها مثلا ـ الايمان بالقناعة ... انها تمسى قنوعا فى كل شىء .. ليس فقط فى لقمة الخبز .. بل وفى طلب المجد كذلك ...

ولن نفيض هنا فى الحديث عن تلك القيم . فمجال الاســهاب فيها كتب الاخلاق .

انمـــا نعرضـــها من زاوية حاجاتنا كشعب طامح الى الحرية والخلاص .

لابد لنا من قيم عليا نابضة ، تنيط بها حياتنا .. وننظم حولها نضالنا مع الايام .

فلنبحث معا عن محور تدور حوله **معايير الشرف والمجـــد** جميعها ، ولنرفعه تجاه أبصارنا ، ثم نصبه صبا فى كياننا .

أما أن نختلف حتى فى اختيار القيم التى ينبغى أن نصل بهـــا أنفسنا ، فضلال بعيد .

اننا لا نحاول فهم الاشـــياء ولا تحديدها .. والذى ينقصنا هو « النظرة المحددة لانفسنا ، وللحياة »

ما نحن ... ؟

بشرية ناميـــة تدور حـــول الشمس ، وتتفاعل مع التطور السيار ...

أم بشرية محنطه جعلتهـــا الاقدار آية زاجـــرة للذين لا يؤمنون بالمسايرة والتجديد ؟

وماذا نريد .. ؟

ان نظل سوائم ذللا ـ ننشد الراحة . ونخلد الى الارض ..

ام نحترم آدميتنا ، فننشد الحرية بلا وجل .. ونكرس حياتنا لتحقيقها والظفر بها ؟

وما الحياة .. ؟

أهى الفاز ، ومعميات . غاية سعينا ان نفلسفها ونفهمها ..

ام هى سعادة متاحة تنادينا لننالها ونحياها ؟

نعم . نريد من الحياة ان نحياها . فكيف السبيل .. ؟

السبيل ـ ان نجيب اولا على هذا السؤال ...

هل نحن سكان غاب .. ام سكان وطن .. ؟

اذا كانت الاولى ، فلندع امورنا تسير اذن على النحو الذى تسير عليه حياة الغاب

واذا كانت الثانية فلابد ـ وهذه حقيقة يجب ان نتقبلها بشجاعة ـ لابد من ان نستانس ونحقق لانفسنا معنى المواطنية ـ كاملا غير منقوص .

واذن، فالمواطنية . هى المحور الذى نختاره لننظم حوله شتى قيمنا ، وكافة معاييرنا .

المواطنية ـ يا مواطنى العزيز هى من الآن مثلنا الاعلى .

المواطنية ـ هى من الآن هدفنا المجيد المفدى .

المواطنية ـ ان تكون فى وطنك مواطنا ـ لا مستوطنا .. وان تكون فى المجتمع كفؤا وندا ـ لا تابعا ولا عبدا .

والمواطنية ـ تقتضيك ان تكون فاضلا ، لا لمجرد حب الفضيلة وخيرا ـ لا لمجرد الرغبة فى الخير .. بل لتكون ياصاحبى جديرا بوطنك ..

ونستطيع الآن أن ننصت لمؤلف « التربية لعالم حائر » يحدثنا عن الواطنية حديثا بليغا (١)

« .. اذا نظرنا الى الواطنية نظرة صحيحة ـ وجب ان نشمل جميع أعمال الانسان التى تمس بنى جلدته ، وتؤثر فى سلامة الدولة ورخائها ـ وتكاد تكون صنوا لواجباته نحو جاره ، وتتضمن هذه الواطنية كل شىء تقتضيه شرائع الدولة ، ويتطلبه الضمير الانسانى .

« وليست الواطنية شيئا سلبيا ـ أى مجرد امتناع المرء عن التصرفات الغير وطنية . بل هى عمل ايجابى . وفى هذا يقول «بركليس» ـ اننا لانعد الرجل الذى يقف موقف العزلة امام الواجبات العامة رجلا هادئا . بل نعده رجلا لا خير فيه .. ويقول «بيرك» الحياة العامة مركز للسلطان والنشاط . والرجل الذى ينام أثناء نوبة حراسته يذنب فى حق الدولة عليه ، شأنه فى ذلك شأن من ينضم الى أعداء بلاده .. »

ويستطرد لفنجستون قائلا :

« والدولة المثلى هى التى يعقد كل مواطن من مواطنيها العزم على ان يكون جزءا من المجتمع الذى يعيش فيه ، ويساهم فى اعبائه ويضع مصلحة المجتمع قبل مصلحته الخاصة ..

« وهذه الدولة آلة لا نجد فيها جزءا واحدا من أجزائها معطلا ، او خاملا ، او صادئا ، او مكسورا ، أو موضوعا فى غير موضعه .. وفيها يساهم كل ترس بقسطه الكامل من العمل فى سرعة وتناسق ..

« فالرجل الذى يتملص من اداء الضرائب المفروضة عليه ـ

---

(١) هو سير وتشرد لفنجستون ومعرب الكتاب ـ الاستاذ وديع الضبع .

مواطن رديء ، ومثله ايضـــا الرجل الذى لا يفكر حين يدلى بصوته فى الانتخابات البرلمانيـــة الا فى مصالحه الخاصة ، أو يهمل الاقتراع بتاتا ـ وتلك أيضا حال صاحب العمـــل الذى يضاعف مشاكل وطنه بسوء معـــاملة عماله ... ومثل هؤلاء أيضـــا ارباب المكاسب الفاحشة ، وتجار السوق السوداء وعمـــلاؤها ، والذين يؤثرون مصالحهم الخاصة حينما تكون مصائر بلادهم فى كفة الاقدار .. »

بهذه البســـطة من الفهم ـ صور لفنجستون جغرافيـــة المواطنية ، ووضح معالمهـــا ، وضرب الامثال للتبعات الشداد التى تفرضها على أصحابها

ان المواطنيـــة ، كما رأينا ـ دين يدعو المـــواطن الى بذل الواجب من أجـــل الوطن ... ويدعو الوطن الى تمكين الفرد من أداء الواجب

هى الاتعيش فى بلادك محايدا ـ بل مجاهدا ...

هى أن تحتـــرم حقوقـــك ، وتمارسها حقا حقا ..

هى أن تدوس مصـــالحك الخاصة ـ عندما تصبح مصاير بلادك فى كف القدر ..

وهى أن تعـــامل الدولة أعضاءها ـ باعتبارهم مواطنين ـ لا رعايا ...

وأن توقظ فى ضميرها معانى الانسانية والكرامة ...

وأن تضع كل مواطن فى مكانه . وتتحدى كل اعتبار آخر يفتح للمحاباة الطريق ..

وأن تعدل ـ ليس فقط فى توزيع الخبز .. بل قبل ذلك فى توزيع الواجبات والحقوق .

وأن ترفع لواء المســـاواة ـ ليس فقط بين الناس ، والناس .. بل وبين العمل والجزاء ... فالاشراف العـــاطلون الذين لا

يعملون شيئا . يجب أن يحرموا من كل شيء ، واذا أغدقت الدولة عليهم تكريمها فقد انتهكت كرامة المواطنين ، وحطمت معنى المساواة ...

والعاملون الكادحون يستحقون التقدير والتوقير ـ فاذا بخلت عليهم الدولة ، وازدرتهم ، فقد باءت بشر ما يبوء به الظالمون !!

بقى شيء آخر ، هو أسمى ما تتيحه المواطنية للناس ـ الكرامة .

فأظمأ ان أبدى لى الماء منة ولو كان لى نهر المجرة موردا
ولو كان ادراك الهدى بتذلل لصار الهدى ألا أميل الى الهدى

واذا لم يجد المواطن من دولته الحرص على كرامته ، فما أصعب الاحتفاظ بها والحرص عليها ..

هؤلاء الذين جاعوا ، فسرقوا !

وهؤلاء الذين وجدوا طريق الوصول ـ التملق ، فتملقوا ونافقوا وهانوا ...

وهؤلاء الذين رأوا الدولة تهملهم ، فأهملوها ..

وحسبوها تخونهم ، فخانوها

هؤلاء ـ وهؤلاء ـ ما الذى أغراهم بالكرامة والواجب .. ؟

انه اهمال الدولة لا ريب .. اهمالها الاخذ بمبدأ السوائية بين مواطنيها .

ومالم نقض على مظاهر التمايز غير المشروع ، فستظل أمة بطيئة الاحساس بكرامتها .. !

ألغوا هذه الالقاب ..

ومسألة الالقاب فى مصر من أهم مسائلنا ـ قديرا ها بعضنا مسألة شكلية تافهة .. وهذا منهم حسن ظن عجيب .

والحقيقة ان الالقاب فى بلادنا مصدر قلق وازعاج للكرامة القومية . بل والانسانية

انها اذلال لكبرياء الشعب ، وايفار لصدره ، وارباء لروح الطبقية المقيتة فيه ..

واذاكان لابد من مثوبة شرفية تستحث بها الدولة مواطنيها نحو التبريز والتفوق والكمال، فلتكن كلمة « مواطن »

صحيح ان لقب « مواطن » حق طبيعى لكل فرد فى وطن ..

ولكن الدولة حين تمنحه احدا ـ يكون اعترافا منها بانه قد ادى واجبات المواطنية، واستحق تكريم الدولة واحترامها ..

أما لقب « باشا » مثلا ، فهناك أكثر من سبب يحتم علينا هجره والغاءه .. فهو ـ

أولا ـ لقب غير وطنى ، وهو من بقايا الاستعمار التركى العثمانى . والامة التى تعجز حتى عن تعمير ألقابها ـ أمة ساقطة من عين التقدم والنجاح .

ثانيا ـ هو رمز بغيض للباشوات الاتراك الذين كان السلاطين يولونهم أمرنا ، فيقتلوا آباءنا ، ويستحيوا نساءنا .. وينهبوا ارزاقنا ..

ثالثا ـ ان اول رتبة «باشوية» انعم بها فى مصر ـ كانت ثمن خيانة اقترفها المنعم عليه ..

فقد حدث عندما غزا بلادنا سلطان البرين، وخاقان البحرين .. السلطان سليم ـ ان انحاز اليه أمير شركسى اسمه «خيربك» وقد لعب هذا الرجل دورا هاما فى تصفية المقاومة ، وتعبيد الجماهير للغازى سليم ، فاجتباه وانعم عليه بلقب « باشا » .. !

وهكذا ظهرت الباشوية فى مصر .. وتوالت علينا بعد ذلك ارجال الباشوات كأنها جراد منتشر ..

وكان لقب « باشا » رشوة تركية يغرى السلاطين بها سفهاء الاحلام والنهى ، ليتفانوا فى خدمتهم التى تقوم على الجبن والظلم .. !

وكانت ايضا اداة يتوسلون بها لاذلال الشعب ، واشاعة الشعور بالدونية فى نفسه امام طبقة الباشوات العاطلين .. !

فلماذا اذن نبقى على القاب غير مصرية .. القاب حملها من قديم الزمن اناس شردونا ، واستباحوا دورنا وحمانا .. ؟

القاب كان لها منذ حين قريب سماسرة يتجرون بها علنا .. ويبيعونها جهارا نهارا ...

يقول المواطن : « احمد لطفى السيد » فى مذكراته المنشورة بالمصور العدد (١٣٥٤) :

« من اجل هذا الشرف الوهمى تهافت الناس على الرتب والنياشين ، وصارت تباع فى ذلك العهد ، وتحدثت بها الصحف عام ١٩٠٨ ـ وقد كان لها سماسرة يسعون فى الحصول عليها لمن يدفع الثمن ، واصبحت تعطى لا مكافأة على عمل من اعمال البسالة .. ولا على خدمة من الخدمات العامة ، بل لعملاء السماسرة الذين يشترون القاب التشريف .. وكان السمسار يأخذ المقدم من المشترى ، فاذا تم التشريف اخذ المؤخر ..

« وكانت الحكومة فى ذلك الوقت تسكت عن هذه الحال لتجعل الناس دائما يهتمون برضاها عنهم .. فهى تلعب باهوائهم ، وشهواتهم ، وتاسرهم بها ...

« وتلك عادة الحكومة الاستبدادية القديمة فتسربت الى الحكومات الحديثة فكانت اثرا من آثار الاستبداد الاولى » !

أرأيتم .. ؟

أولئك هم الباشوات الذين كان أجدادنا يرتعدون أمامهم فرقا .. لم يكونوا على شىء من العلم ، ولا من الصلاحية ...

ولكنهم اشتروا من السماسرة لقبا فضفاضا يسترون به هزالهم، ويتألهون به على العباد .. !

ما أروع ابن عبد الله ـ حين ناداه صحبه ـ أنت سيدنا ، فقال غاضبا :

لايستهوينكم الشيطان .. ولاتقولوا عنى « سيد » .. انما أنا عبد الله ورسوله .!!

ثم ما أبلغ العبارة التى رفض بها « برنارد شو » الالقاب الكثيرة التى عرضت عليه :ـ

« انها قيود من ذهب . تضطر الانسان لان ينحنى كى توضع فى رقبته » ..!

وما أشد حاجة الامة التى تحللت شخصيتها وتلاشت الى نبذ مظاهر التمايز ، واماطة «الالقاب» عن الطريق .. ان اللقب دثار يغطى عرى لابسه .. عريه الوطنى وعريه الاخلاقى

ألم يكن كذلك ، لخير بك . الذى صار خير بك باشا . فغطى خيانته الى حين ..؟

ونحن على يقين من ان الذين يسفكون كرامتهم .. ويهرقون ماء وجوههم لينالوا لقبا ـ انما يحفزهم لهذا الرغبة المنحطة فى التبذخ على الشعب .. فلنقطع عليهم السبيل .. ولننتزع عن أعناقنا هذه الاطواق .

وبعد ، فهل يمكن أن نكون مواطنيين بلا وطن .. ؟

لقد وضحنا فى هذا الفصل الى حد ما الوسائل التى تفضى بنا الى انهاض شخصية الشعب كى تعمل ..

ولكن أين تعمل اذا هى لم تجد لها مجالا . .

لابد لنا من وطن .. يكون خالصا لنا دون المستعمرين والمستغلين ..

ومصر – هى الارض التـــى درجنا منهـــــا ، ومهدنا فيها ، ورضعنا بلبانها ..

ولكن الاستعمار اختلسها منا .. وصيرنا فيها غرباء وصبغ كل مقوماتهـــا بلونه ، ومن أردا من الاستعمار صبغة ..؟

ومهمتنا الكبرى تحرير الوطن

فكيف السبيل ؟

obeikandl.com